المحاضرة التاسعة:

2-2 خصائص المدرسة الكوفية ومنهجها:

لئن كان البصريون قد اضطلعوا برسم حدود هذا العلم وجمع لغته وتصنيف مادته ووضع أقيسته وتعليلاته وغيرها، فإنّ الكوفيين قد وجدوا علماً مكتملاً، فكان عليهم أن يخالفوه ليَميز نحوهم من نحو البصريين ،فاعتمدوا على لغات القبائل الأخرى غير التي أخذ عنها البصريون، كالقبائل التي كانت تجاور الكوفة ،كتميم وأسد ونزار، ومن جاور بغداد كأعراب الحطمية.

ومما تميّزوا به أيضاً:

-الاحتجاج بأشعار القبائل التميمية أو النزارية التي تفاخَر بها الكوفيون.

- احتجاجهم بالقراءات القرآنية المتواترة والشاذّة انطلاقاً من توسّعهم في الرواية،فقد كان الفراء يبني على القراءات الشاذة أحكاماً جديدة، ولا يشتهي مخالفتها[1].

- توسّعوا في القياس فوضعوا أقيسة جديدة توافق ما سمعوه، فقاسوا على المثال الواحد أو الظاهرة الواحدة وهو أمر عدّه بعض الباحثين من الحق؛ لأنّه ما كان في نظر البصري شاذاً خارجاً على الأصول إنّما يمثل لهجة عربية لا يمكن إغفالها وإقصاؤها البتة، فلا يمكن لأعرابي أن يتكلم بشيء غير موجود في لغته، وإنّ لهجته تلك قد شبّ عليها وتحدث بها منذ نشأته الأولى، وإهدارها إهدار لجانب لغوي وبيئة لغوية[2].

- تركهم للتأويل والتقدير واعتمادهم على الطبيعة اللغوية فلا يلجأون إلى الافتراضات والتكهنات ولايستهدون بالعقل ولا بأصول المنطق، وإنّما كان ديدنهم تذوق اللغة وإحساسهم بطبيعتها[3] .

- وضع مصطلحات جديدة خاصة بهم ليستقل نحوهم عن نحو البصريين، على الرغم من أنّ معظمها كان قد ذكرها أو أشار إليها سيبويه والخليل[4].

---

[1] -ينظر مدرسة الكوفة،ص382

[2] -ينظر نفسه،ص378

[3] -ينظر نفسه ،ص379

[4] -ينظر المدارس النحوية، الحديثي،ص138 وما بعدها

المحاضرة العاشرة:

3-المدرسة البغدادية ونشأتها:

مدينة بغداد مدينة عراقية بناها أبو جعفر المنصور سنة768م وكانت إذاك مزرعة للبغداديين تقع على الشاطئ الغربي لنهر دجلة، وكانت تسمى مدينة السلام وتسمى كذلك المنصورية نسبة إلى بانيها، كما كانت تسمى جنة الأرض و واسط الدنيا وقبة السلام، وغيرها من الأسماء التي أطلقت عليها، ولم يشع منها إلاّ بغداد الذي بقي متداولاً إلى يومنا هذا.

ولقد وردت روايات عدّة تُسوّغُ سبب تسميتها بغداد، منها أنّها كانت تسمى بغداذ وهي مركبة من (باغ) وتعني بالفارسية بستان و(داذ) وهي اسم صاحب البستان.،وقيل تتكون من (بغ) وهو اسم ملك الصين و(داد) أي عطية مّا، وكان تجّار الصين حينما يعودون من ذاك المكان بربح وفير يقولون (بغ داد) أي عطية الملك،وهناك روايات أُخر لا يسع المقام لذكرها جميعاً[5].

ومهما يكن من شيءٍ فإنّ هذه التسمية (بغداد) هي تسمية فارسية وحجّة ذلك ورود الدال مع الذال وهو ما لا يوجد في كلام العرب و العربية[6].

3-1 المدرسة البغدادية بين الشك واليقين:

اختلف المؤلفون والدارسون المحدثون في قيام مدرسة بغداد، فمنهم من أثبتها ومنهم من نفى وجودها، واكتفوا بعدّها تجمعاً للنحاة لا يرقى إلى المدرسية، وقد اختلف الذين أثبتوها في ثلاثة أمور:

1-مفهوم اصطلاح البغداديين ومفهوم هذه المدرسة.

2-زمن هذه المدرسة ومراحلها.

3-نحاة هذه المدرسة واتجاهاتهم.

---

[5] -ينظر المدرسة البغدادية، ص12

[6] -المرجع نفسه،ص12

الاتجاه الأول: يمثله مَنْ أثبت وجودها وفي صدارتهم محمد الطنطاوي الذي صرّح في كتابه أنّ المذهب البغدادي هو نتيجة لتلاقي مذهبي البصرة والكوفة في بغداد، والخلط بينهما لاستخلاص مذهب جديد هو المذهب البغدادي القائم على الانتخاب والاختيار من المذهبين البصري والكوفي، ويوغل الشيخ الطنطاوي في زعمه بوجود هذه المدرسة حينما أقرّ بأنّ هذا المذهب هو بداية عهد جديد في النحو في القرن الرابع للهجرة[7].

ولقد ذكر من نحاته ابن قتيبة، وابن كيسان، والأخفش الصغير ونفطويه[8].

ومن الذين أثبتوا هذه المدرسة شوقي ضيف، الذي يرى «أنّ مدرستي البصرة والكوفة المتنافستين في بغداد قد تقاربتا واندمجتا في نهاية القرن الثالث الهجري في مدرسة بغداد»،التي يكمن مذهبها في انتخاب المدرستين البصرية والكوفية، و يعترف ضيف بهذه المدرسة ويجعلها مدرسة جديدة في بغداد تدرجت في مراحل متعاقبة حتّى وصلت إلى غايتها[9].

وأمّا مهدي المخزومي فلم يستقر رأيه على حال واحد في تصوّر وجود هذه المدرسة من عدمه، فمرةً يسميه مذهباً ومرةً يسميه درساً لا يرقى حتى إلى المذهبية، ففي كتابه مدرسة الكوفة أقرّ بوجود مذهب نحوي انتخابي في بغداد فيه الخصائص المنهجية للمدرستين البصرية والكوفية[10].

أمّا في كتابه الدرس النحوي في بغداد فقد أعرض على أن يسميها مدرسة أو مذهباً، يقول في ذلك: «ولم أجعل عنوان هذا الكتاب :مدرسة بغداد أو مذهب بغداد في النحو لأنّ مدرسة الكوفة أدقّ في الدلالة على ما يراد بمدرسة بغداد»[11]؛لأنّ هذه المدرسة – في رأيه– أخذت منحيين أو اتجاهين الأول بصري والثاني كوفي «سارا في خطين متوازيين إلى أن تغلب الاتجاه البصري في بغداد»[12].

---

[7] –ينظر نشأة النحو،ص111

[8] –ينظر المرجع نفسه،ص106، 107

[9] –ينظر المدرسة البغدادية،ص49،ومقدمة الإيضاح في علل النحو،الزجاجي،ص (ج)

[10] –ينظر مدرسة الكوفة،ص70

[11] –الدرس النحوي في بغداد،المخزومي ،ص10

[12] –المرجع نفسه،ص10

إذن فموقف المخزومي هو أنّ النحو في بغداد لا يرقى إلى أن يكون مدرسة قائمة برأسها، وما هي إلاّ مذهباً انتخابياً جمع بين منهجي البصرة والكوفة، كما فعل بعض النحاة المتأخرين في جمعهم بين المذهبين، وانتهاجهم المنهج الوسط كما فعل ابن مالك الأندلسي[13].

وممّن اعترفوا بوجود مدرسة بغداد أحمد مكي الأنصاري الذي جعل الفراء زعيمها الأول، وجعلها سعيد الأفغاني مذهباً جديداً نتج عن الاحتكاك والتمازج النحوي بين البصريين والكوفيين بل بين العلماء من شتى الأمصار[14]،وهكذا فعل أحمد أمين وكارل بروكلمان وعبد الرحمن السيد ومازن المبارك وأحمد مختار عمر وغيرهم[15]، غير أنّ مازن المبارك قد نفى وجودها في موضع آخر[16].

الاتجاه الثاني: ويمثلهم من المستشرقين فايل محقّق كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري ي نفى أن تكون مدرسة الكوفة مدرسة نحوية قائمة بذاتها، وهذا يعني نفي كلّ مدرسة أخرى بعدها،وقد عارض عبد الفتاح شلبي الآراء التي أثبتت وجودها وجعلها مناقضة لأراء أصحاب الطبقات بيد أنّه أثبت وجودها في مواضع أُخَر[17].

وقد دحض فاضل صالح السامرائي عالم النحو والبيان في العصر الحديث حجج من أثبتوا وجود مدرسة بغداد، وأبطل إطلاق مصطلح مدرسة أو مذهب على النحو في بغداد وأنّها راجعة إلى أن تكون مذهباً بصرياً أو كوفياً[18].

ويبدو أنّ الرأي الأخير – فيما أحسب- هو الرأي الأقرب إلى الصواب لأنّ السامرائي قد وضع أسساً ومقاييس تخضع لها المدرسة وهي أن تكون:

-ذات أسس تتبعها في أصول البحث.

-أن تكون لها مصطلحاتها الخاصّة بها.

---

[13] -ينظر مدرسة الكوفة،ص70

[14] -ينظر المدرسة البغدادية،ص50

[15]- ينظر المرجع نفسه،ص50، 51

[16] -ينظر المرجع نفسه،ص53

[17] -ينظر المرجع نفسه،ص52، 53

[18] -ينظر ابن جني النحوي ،فاضل صالح السامرائي،دار عمار ،ص247

-أن تكون لها مسائل خلافية.

ثم النظر إلى النحوي ذاته وأين يعدُّ نفسه أمن البصريين أم من غيرهم؟

وعليه لا يعدُّ السامرائي مدرسة بغداد مدرسة «لاّ إذا أثبت أنّها مدرسة مستقلة ذات أسس مستقلة وكيان خاص وآراء مستقلة وأن نحاتها يتصفون بهذه الصفات أيضاً»[19]،وقد رفض أيضاً – والحال هذه- أن يكون كلّ من نشأ بعد المبرد وثعلب من المدرسة البغدادية[20].

ومهما يكن من أمر الاختلاف فإنّنا ههنا لسنا بصدد الاقتصار على إثبات مدرسة دون غيرها بقدر ما نودّ أن نركّز على النشاط النحوي في بعض الأمصار العربية التي شهدت حركة نحوية منقطعة النظير، وتدرجها عبر العصور مكوّنة بذلك حلقات وتجمعات فكرية اتحدت و تقاطعت وتباينت فيما بينها، فكونت علماً ليس له ساحل ولا تحدّه حدود، وهو هذه الرسالة النحوية.

---

[19] -ابن جني النحوي،ص250

[20] -ينظر المرجع نفسه،ص251